خيَّا

1- خيَّا

عندي عمَّان: شقيقا أبي، أحدهما -وهو الأصغر- مصارعٌ جلد، قوي البنية متينها، عظيم القبضة شديدها، لا تفلت منه حلبة إلا وتجندل أمامه منافسه يتشحط، وهو رامٍ ماهر، حبَّاه الله عين صقر، يقيس المسافة ويوازن ثم يضرب أو يقنص؛ حسبما توفر له: مقلاعًا أو حجرا أو بندقية، مرن الحركة سريعها، تشهد له كل المتاريس التي وضعت لتشل المخيم وتقطع أوصاله، فاتخذها لهوا ولعبا، يقفز من فوقها كأنها وضعت خصيصا لتسليته الخاصة، فإذا ما تجاوزها نفض كفيه من غبار وهمي، وضبط شعره، ثم مضى كأن شيئًا لم يكن. يحفظ مداخل ومخارج المخيم ككف يده، مسطور في مخيلته كل منفذ، واضعٌ في حسبانه باب الجار الخلفي، والأمهات المتمترسات على كل باب، يحضرن الحجة لإعاقة ما يفسد عليه تسلسلية النفاذ! ذو شخصيةٍ كاسحة، ووجهٍ قدَّ من صخر، لا تفارق الكوفية جيده، فإن اقتضى الأمر اعتلت نصف وجهه حتى لا تظهر منه إلا عيناه =اللتان إذا ما ضاقتا وقدحتا فترقب الويل، وهو على ذلك إذا ما لانت منه الشفاه هطل الصيب، ثم أيقنت بالإجابة! يحبه الغلمان ويهابونه في آن، إذا ما خطا في المخيم أفسحوا الساحات لمروره، وإذا ما شاركهم اللعب ملاطفا، وقفوا هنيهات مذهولين، ثم لم يلبثوا إلا أن يتطايروا حوله فرحين مشدوهين. ويلتفُّ حوله الرفاق، فذا يطلب رضاه، وذا يؤيده مطلقا، ولا يكاد مجلس الدار ينفض من تجمعاتهم، ولا نار الدار تهدأ ولا أباريقها. اعتادت الجيرة على صرير الباب فتحًا وانغلاقا في عتمة الليل: ملثمٌ يروح وآخر يجيئ، واعتادوا معها على المداهمات التي لا تستأذن، والتي لا تأتي بشيئ، غير كسر باب الدار مرارا وتكرارا، والكثير الكثير من البعثرة والتهشيم، ووقفة جدتي الواضعة كفيها على خاصرتيها أبدا: وين يا خواجة !! مفش حد.

حدثتنا جدتي فقالت: عندما كان(ثائر) صغيرا، كان يعمد إلى قن الدجاج وهو يتلفت، يحسب أن لم يره أحد، فإذا أمن، أخذ بقلمه يكتب على بيضةٍ انتزعها من مرقدها، وكتب عليها اسم(فتح)، ثم راح يتصايح ويتقافز: انظروا، حتى البيضة عليها اسم ال (فتح)!

2- خيًّا:

أما عمّي الثاني فما كنت لأنسى له ما حييت أنه كان مرشدي الذي جاس بي عبر عالمٍ جديدٍ ومختلف عن العوالم التي عهدتها ودرجت عليها، عالمٌ ولجته لأول مرة بعد أن فتح لي هو مصراعيه على الوسع: كتبٌ تجدها في كل مكان حولك، تمد عليك رأسها من فوق الجدار، وتتثال إذا فتحت صنبور الماء لتغرقك =كتبٌ حال لون أوراقها، واهترأت أغلفتها، وبقي لسانها يدور، كأنما خبرت التداول بين الأيدي واستعانت عليه بالثرثرة، وكتبٌ أخرى صقيلٌ حدها كالسيف يستفز دم أصابعك، تهديك شرنقتها الأولى لتبهر عينيك بنصوعها، ولكنها بكماء، تروح عيناك وتجيئ تستجدي الفهم، فتجود عليك به بعد لأواء، وتضن بالمزيد! غير أنها كلها يجمعها ذات الوسم المدبوغ على جلدها: منجل ومعول يتقاطعان!! هنالك رأيت ماركس ولينين، وسمعت كاتيوشا وكالينكا، وشممت رائحة الفراء العطن، وتهشمت على رأسي تجمدات الفولغا في منتصف آب! أذكر أول مرة شاهدت فيها فيلم عمر المختار معه، وكنت لم أتجاوز عامي الخامس بعد، يستلقي بجانبي ويستطرد شارحًا كل تفصيلة يعززها بالمقارنات والتمثيل والكثير من عفلق وعروبيته، وجيفارا وعالمية دعوته. بل وإنني أذكر مشاهد بعينها تنهنهت لها حتى العظم، ليرتبط عندي المختار ببكائيات لا تنتهي! وهو مع تعطشه ذاك لكل حرف يكتب، متعدد اللغات: يرطن العبرية كأنها لغته الأم، وتتناثر الفرنسية بين لجج كلامه بدون حول منه ولا سابق قصد، قوي الذاكرة: يدعم حجته بالبرهان الموثق والدليل، حاد الذكاء: يقيس ويربط فيستنتج ويبني، مجادلٌ مجهزٌ وشرس: تلين له أعتى ساحات النقاش، إذا ما برقت عيناه فاعلم أنه أتاك من مأمنك، لا يُقاد أو يُستدرج، بل يفعلها هو بكل حنكةٍ ودراية، حتى لكأن خطط الخصم تجلت في ذهنه مع النحنحة الأولى، لوذعيٌّ ساخر: إستفزازه محال، وفكاهيٌّ طروب: جمع حوله القلوب، فلانت العقول. وكانت له عصبته الخاصة التي تلتف حوله، تراهم فتحسبهم إخوة الكهف، عاليهم سمت الثوريِّ الذي اصطنعته القضية لنفسها، فباتت معالمها تشق طريقها على تضاريسه، بعد أن وهبها عصارة الروح، ليغدو هو من أحد أهم القيادات المنظِّرة والتعبئية في مرحلةٍ معلومة من مراحل تدرج القضية وهو لم يتعد ربع القرن من عمره بعد!

3- خبَّا:

للحق: دار الجد كانت أشبه بخليةٍ ثوريةٍ عجائبية لا تهدأ؛ يختلف إليها فدائيو التنظيم العامل والأبرز في ذلك الحين، مع منتسبي الفكر الاشتراكي التنظيريين، كلٌّ يحمل عتاده، لتنوء ساحة الدار بما في جوفها، لا تلفظه وإن استنطقت! وكأيِّ بيتٍ فلسطيني تحزَّب كل من فيه، واعتنق من الفكر المقاوم ما عنّ له، فاتسم به وأضحى له طابعا =غدت حكايات العمل الثوري إطار المنظومة الشعبية كلها، والحاضنة لها، كأنها الخبز الذي لا فطام عنه. وكان ما ليس منه بد، واعتقل الشقيقان في مداهمتين متتاليتين، كأن اختلافهما الحزبي عاد فوحدهما في زنازين محتلٍ واحد، بعد أن فرقهما في مجلس الأب الواحد. وكان على الجدة أن تتلو وردا آخر اختزنته لوقته المحتوم، وأن تسيح في منافي الأرض خلف ابنيها تطلب أخبارهما، لتبدأ قصة نضالها الخاصة في مسلسل النضال الذي بدأته مهاجرةً على كتف أبيها، وأنهته ككل فلسطينية: تستقبل ابنا، وتودِّع آخر.

ما اجتمع الشقيقان في معتقلٍ واحدٍ قط، زيادةً في التعسف والتنكيل، بل وما استقر أحدهما في معتقل، يقضي فيه محكوميته والسلام، بل تنقل كلاهما بين شرقٍ وغرب: من عوفر لمجدُّو وحتى النقب، والأم تلهث وراءهما، تحمّل الزوادة من قبلات، تدسها لهما من خلف السلك الشائك مع غيارات الشتاء: دفي حالك يمَّا، دفِّي حالك منيح هاه. لا تحسب معها عدد مرات يجيئ فيها الخبر من الصليب الأحمر بتبدل محل الاعتقال في آخر لحظة، والمرات التي تصل فيها خيم الاعتقال فتجد أن لا اسم لولديها فيها!

صحبتها مرة لزيارة أحدهما، مرة من مرات قليلة نادرة لا تكون فيها الزيارة إلا لذوي القربى من الدرجة الأولى فقط: أبٌ أو أم! ظلت قبل الزيارة أسبوعًا كاملًا تروح وتجيئ، تتوسل تراكض عقارب ساعتها، وتهدهد كل قطعة ثيابٍ وتشمها بكل قوتها، كأنها تتنفس صاحبها: يا حبيبي يمَّا ! حتى إذا ما حلّ اليوم الموعود، عمدت إلى أجمل أثوابها وتزنّرت كما العروس، وتوشحت باللهفة التي لا حد لها أو رواء. وشاهدتهم أنا، شاهدتهم في الخاكي البغيض، يتناثرون هنا وهناك كبقع العتم على نصوع. ألجأ إلى حماها أواري وجهي، لتأخذ هي بيدي وتعتصرها في كفها البضة كأنها الوطن. ومن بين طيات ثوبها أرسل نظرتي، يرشقوننا بكلمات قدّت من

مقالع الصخر، تجابهها بعينٍ تصدت لمخارز الكون، ترفع المجندة ثوبها المطرز كآيةٍ على سفر، فتنتصب جبلًا، أرفع عيني إليها، ومع عيني أرفع كفي لتحجب شمسًا تجلَّت في وجهها، هناك فوق، فوق حيث تسكن المجرات...

4- خيَّا:

كلُّ قلوب الأمهات حبلى بالوجع، ترتقبنه وتعددن له الوسائد المطرزة، ينثرنها في كل ركن كيفما اتفق، ويتعطرن له بكامل البذخ، فإذا ما أجاءهن المخاض عضضن على حبال التصبر علَّها تحجب الأنات، حتى إذا ما تجلَّى = أوسعن له صحن الدار، وحلَّ فيهن لا يفطمنه أبدا. أيها الوجع المبارك ما أجلَّك! والجدة تحملك بين أعطافها لا تكل، ترعاك فيها كأنك بقية الولد، وتغذوك كلما خلت بكلِّها، فتكبر فيها وتستطيل، والولدان هناك، يكبران هناك، بعيدًا عن مقلةٍ تتوسل الريح ألا تعبث بشعرٍ صففته بأصابع عينها، والأرض ألا تقسو فتعثِّر قدمًا مشَّتها على أهدابها دهرا ! والشقيقان في المعتقل تعركهما السنون، تأكل على موائد عمريهما، فيجدِّان حدَّ اللهاث وراء أملٍ يتبدى لهما خلف الجدار: وطنٌ ينتظر، ودعوات أمٍّ تبتهل من وراء السلك: معلش يمَّا، والله لتهون!

عام، عامان، عشرة أعوام، خمسة عشر عاما بالتمام والكمال، كأنها نقش الحناء على الجبين، لتغدو لفظةُ أسيرٍ وسامًا لا يتقلَّده إلا الرجال الرجال، وتزهو أمٌّ : أنا أم الأسير! وهناك في المعتقل تجري الريح بأمر ربها، ويمور تنور التفكُّر ليخرج شطأً آخر على أتم النضج، هناك حيث ينتقل الفكرفي الهواء لتتلقفه الأدمغة تحلِّل وتبني، فإذا بالسحر انقلب على صاحبه، وإذا بالمحنةِ استحالت منحةً تصنع أقدار الرجال، فيُصطنع إخوة السجن على عين، لتغدو زنزانة رطبة مظلمة = مرتعًا خصبا للتأطير والتنوير والتحزب والوعي الجديد؛ أقدارٌ تتشكل، وأفهام تولد من رحم العتم، لتحيلهم خلقًا جديدا، أو تثبِّت، والرب من فوقهم محيط!

الشقيق الأصغر، العلماني الصنديد، ذو الشخصية الكاسحة الماحقة، والذي لطالما كان نواة يتجمع حولها الصحب = غدا سلفيًّا لا يؤمن إلا بحلٍّ واحدٍ أوحد لكل معترك القضية ومبناها، فيحفظ على طريق الفتح القرآن كاملا، وبقراءاته العشر، ويلحق به الصحيحين، تعينه ذاكرته

التي وهب، وإرادة الله وتقديره لما سيكون.حتى إذا ما أتى أمر الله = خرج من أسره وعمل بما آمن وله، ليلقى الله شهيدا.. نحسبه.

والماركسي المجادل يصول في ساح الفكر ويجول حتى تثبَّت وصنع من حوله عصبةً خرجت لتمسي قيادات لها ثقلها، فلمَّا خرج تدرَّج في مناصب القيادة وعلا شأنه، وحسنت سيرته، حتى شاء الله له أمرا مخبوءا، فإذا بعائلته بأكملها تلقى الله في الحرب الأخيرة إثر مجزرةٍ ما رحمت منهم صغيرًا ولا أم صغير، فلما تبدَّى له، كرَّ على درب شقيقه ..علَّه يلقاهم هناك، حيث وعد الله الحق!